يشكلون مصدر ازعاج بالنسبة لكل أمة من الامم . ولقد تقبل سايكس تلك « الصورة الشائعة عن اليهود باعتبارهم يتكالبون على النقود ويركضون وراء الدرهم دون رابط يشدهم الى مكان ما ، وهذا مما يزيد في احتقارهم بنظره ، اذ يحاولون الظهور بما هم ليسوا عليه »(٣١). ومثلما احتقر سايكس عرب المدن ، فانه كان يكره اليهودي الليفانتيني . ومما قاله في ذلك : « اذا كان البعض يمتلىء سرورا وحبورا لرؤية اولئك اليهود السمناء الملساء يتحدثون الى نساء على شاكلتهم ، فانا لست من هذا البعض »(٣٢). لكن جهود هربرت صموئيل هي التي جعلت سايكس يستلهم فكرة الصهيونية ، أي الفكرة القائلة بتجديد اليهود لكي يصبحوا أمة من الناس الجديرين بالاحترام . فلو اعطي اليهود وطنا قوميا لما عادوا بلية على المدنية ، ولانصرفوا الى غرس تلك الفضائل التي ربط سايكس بينها وبين حراثة الارض . بيد ان سايكس لم يكن يتصور اقامة وطن سياسي لليهود ، بل كان بالاحرى ينشد لهم قومية روحية وثقافية . ففي هذا الجو العتيد كان من المقدر لليهود ان يصبحوا « أمة من الفلاحين وملاكي الاراضي الحقيقيين ، مثل سائر الناس ، وليس امة من المتمولين والكوزموبوليتانيين والراديكاليين »(٣٣). لقد آمن بالصهيونية وأيد تصريح بلفور لكي يتسنى لليهود ان يتجددوا . ولم يكن هذا بالطبع السبب الاوحد وراء تأييده . لقد كان سايكس من اوائل الذين ارتأوا الاستفادة من القيمة الدعائية في كسب تأييد اليهود الاميركيين . لكن هذه المواقف الكامنة نحو الصهيونية ولدى البارزين من رجال الدولة البريطانيين ساعدت على تكوين السياسة الصهيونية البريطانية خلال الفترة الباكرة التي أعقبت الحرب مباشرة . حتى ان المرؤوسين استبد بهم الحماس للصهيونية . فقد سافر فيتز موريس ، وهو احد الخبراء المحليين لدى السفارة البريطانية في تركيا ، الى روما في محاولة لكسب التأييد البابوي لسياسة ممالئة للصهيونية(٣٤). وفي مطلع ١٩١٧ أصبح من المتعذر على الحكومة البريطانية اقصاء الصهيونية الى المسرح الخلفي .

وفيما كان الصهيونيون ينصرفون الى ممارسة « نشاطاتهم الدائبة تحت ستار الكتمان في لندن »(٣٥)، يجدر بنا التساؤل عما يلي : كيف شعر رجال الدولة البريطانيون ازاء السكان العرب ووعيهم القومي الآخذ بالظهور ؟ ان تصريح بلفور ومراسلات الحسين ــ مكماهون قد صدرت عن أصول مختلفة تمام الاختلاف . فالتصريح جاء تمشيا مع سياسة توازن القوى العائدة للقرن التاسع عشر . بينما كانت المراسلات اتفاقية مع شريف مكة تقضي برعاية الثورة العربية في شبه الجزيرة ، لكي يتسنى الهاء قوات الاعداء . وعلى زمن كيتشنر أعطي الحسين وعدا باقامة كيان سياسي اسلامي ومستقل يكون مركزه في شبه الجزيرة العربية(٣٦). ففي احدى البرقيات التي أرسلها كيتشنر الى عبد الله بن الحسين في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ نجده يقول له : « . . . ربما تسنى لعربي أصيل المحتد ان يتسلم زمام الخلافة في مكة او المدينة »(٣٧). ومع مجيء عام ١٩١٧ ، وفي معرض الرد على قيام جمال باشا بافشاء سر اتفاقية سايكس ــ بيكو للشريف حسين ، وعدت بريطانيا باقامة دولة عربية واحدة . كما ان التصريح البريطاني للسبعة والبيان الانجلو ــ فرنسي صدرا في وقت لاحق بمثابة ابطال فعلي لاتفاقية سايكس ــ بيكو وانكار حقيقي لها . بيد انه خلال المفاوضات التي أدت الى صدور وعد بلفور كان معظم الساسة البريطانيين لا يعرفون سوى القليل عن السكان العرب في فلسطين ، ومن المؤكد انهم لم يعتبروا هؤلاء العرب بمثابة جماعة قومية موحدة . وحتى في النص الرسمي لتصريح بلفور فانه لا يؤتى على ذكر العرب بنوع خاص ، بل يتم ادراجهم تحت التسمية الغامضة والمطاطة لفئة « الطوائف غير اليهودية »(٣٨). ان آراء العرب لم يعبر عنها ، بل جرى تصنيفهم كما يلي : « فقد اعتبروا [العرب] اما من البدو او الافندية او الفلاحين . البدو يمتلكون شبه الجزيرة العربية ، اما الافندية فانهم اما من المرابين او من أصحاب الاملاك الغائبين او الاثنين